الحياة الطيّبة
السنة 20
العدد 35
خريف 2016 م
قراءات علمية

غادامير. نحو هرمينوطيقا أنطولوجيّة وجدليّة

الدكتور محسن مونا[1]

مقدّمة:

عام 1960، وبعد ثلاث وثلاثين سنة من ظهور كتاب هيدغر: «الكينونة والزمان»، ظهر في ألمانيا كتاب «الحقيقة والمنهج» لصاحبه هانز غيورغ غادامير (1900-2002) (H. G. Gadamer)؛ الفيلسوف الهرمينوطيقيّ الذي عمّر طويلًا، وأبدع ضمن خانة الوعي التأويليّ. لقد سلك غادامير مسلك هيدغر في نقد الهرمينوطيقا التقليديّة المهووسة بالمنهج، واعتبر أنّ القضية الأساس لا تكمن في الطريق الميتودولوجي للفهم بقدر ما هي فهم الفهم نفسه، وكشف مساراته التاريخيّة والسياقيّة والجماليّة. يقول غادامير في السياق ذاته: «وجدتُ -من جانبي- المنطلَق الأوّل في نقد المثاليّة (Idealismus) والمنهاجويّة (Methodologismus) اللتين ميّزتا عهد نظريّة المعرفة. امتداد مفهوم الفهم إلى «الوجوديّ» عند هيدغر؛ بمعنى التصميم الحاسم «للدازاين» (الوجود -في- العالم) «Dasein»، يعبّر عندي عن مرحلة حاسمة؛ إذ حملني هذا المفهوم -بحكم تحريضه- على مجاوزة مناقشة المشكلات المرتبطة بنقد المنهج لتوسيع مسألة التأويل في ما وراء حقل العلم وإدراج تجربَتي الجمال والتاريخ»[2]. هذا الاستشهاد

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ، من المغرب.

(2) غادامير، هانس غيورغ: فلسفة التأويل، الأصول، المبادئ، الأهداف، ترجمة: محمد شوقي الزين، ط2، بيروت، الدار العربية للعلوم؛ الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي؛ الجزائر، منشورات الاختلاف، 2006، ص175.

غاية في الأهمّيّة؛ لأنّه يبيّن مدى تأثير هيدغر البالغ في هرمينوطيقا غادامير من خلال مفهوم الدازاين ذي الحمولة الأنطولوجيّة الصرفة، ويبيّن كذلك المسار الذي سيسلكه غادامير في الهرمينوطيقا والمُؤَسَّس على نقد المنهج والعلمويّة وتدعيم موقع التاريخ وزمانيّة الفهم، وكذا قلب التصوّر حول الفنّ الذي اختزلته الإستطيقا إلى إنتاج جماليّ فقط. والحقيقة أنّه يعبّر عن حقيقة حيّة ومستقلّة هي التي يجب على التأويليّة رصدها، على اعتبار أنّ الحقيقة الفنّيّة أجدر بالبحث والفهم من غيرها.

ويبدو أنّ سؤال الفهم هو الذي يمكن أن يوجّه هذه المحاولة، ويبيّن بالموازاة مع ذلك تمفصلات الهرمينوطيقا الغادامیريّة، ولا سيّما أنّ الأسئلة كثيرة هنا؛ أسئلة تفصح عن طابع إشكاليّ أصيل؛ من قبيل: ما الفهم عند غادامير؟ وما موقف التأويليّة عنده من قضايا التراث واللغة والتاريخ؟ وهل يدشّن العقل الهرمينوطيقيّ عند صاحب «الحقيقة والمنهج» لما يسمّى بـ «فوضى المعنى»، أم يشكّل قاعدة أصيلة للفعل التأويليّ؟ وما موقف غادامير من مسألة المنهج والحقيقة: هل هما متعالقان أم منفصلان؟ وأسئلة أخرى تنظر إلى الهرمينوطيقا الفلسفيّة في ظلّ علاقاتها بالفنّ والجمال والأحكام المسبقة.

أولًا: تأسيس الفهم ونقد المنهج:

إنّ الإجابة عن تلك الأسئلة تقتضي لزامًا معرفة العدّة المفاهيميّة الغنيّة التي يتوسّل بها غادامير؛ سواء في «الحقيقة والمنهج»، أم حتى في «فلسفة التأويل». ويبدو أنّ تأويليّة غادامير تنطلق في الوهلة الأولى من هدم فكرة المنهج، فقد ظلّ المنهج منذ شلايرماخر ودلتاي -وبضغط من العلوم الطبيعيّة- صلب التفكير ضمن المشكلة التأويليّة ومركز الاهتمام، لكنّ الحقّ أنّ «المشكلة تعود إلى أبعد من حدود مفهوم المنهج؛ كما

وضعها العلم الحديث»[1]، وينبغي عدم التغاضي أبدًا عن أنّ الانصراف إلى سَجن الممارسة الهرمينوطيقيّة ضمن الميتودولوجيا يقتل تلك الممارسة ويسلبها معناها الإنسانيّ الذي يجب أن تعبر عليه؛ بل إنّها تعبر عليه في الواقع. ونجد غادامير نفسه يؤكّد على «أنّ الظاهرة التأويليّة ليست أساسًا مشكلة منهج على الإطلاق، وهي لا تعنى بمنهج للفهم بوساطته تُخضِع النصوص لبحث علميّ؛ مثل جميع موضوعات التجربة الأخرى. إنّها لا تُعنى ابتداءً ببناء المعرفة المُثَبَّتة، حتى تفي بمطالب النموذج المنهجي للعلم؛ مع أنّها تُعنى بالمعرفة والحقيقة أيضًا»[2]، فالفهم الهرمينوطيقيّ ليس مناقضًا للحقيقة بقدر ما يتّجه نحو التساؤل حول الحقيقة التي نريدها؛ لأنّ تحليل النصوص يقود بالضرورة إلى بلوغ حقائق، ولكنّ التأويليّة تلفت نظرنا دائمًا إلى أنّ ثمّة حقائق ضمنيّة لا يكشفها العلم، تكون مختفية بين حدود الكلمات، في ثنايا السلوكات الظاهرة، وفي «لاشعور» المتلفّظ. تلك الحقائق هي التي يعتبرها الفهم موضوعه الأساس والمركزيّ، ويشكّل الفنّ بجميع أنماطه أهمّ مصدر ومنبع لها.

بناءً على ذلك، فإنّ الفهم ليس مرتبطًا بشكل قطعيّ مع قضيّة المنهج، ولكنّه فاعليّة إنسانيّة تسمو على الخضوع للمنهاجويّة القسريّة؛ فـ «الفهم هو إجراء وساطة بين الحاضر والماضي، وتطوير في الذات لكلّ السلسلة المرتبطة بالمنظورات التي يحضر عبرها الماضي ويتوجّه إلينا»[3]، وليس الفهم وسيطًا بين أفقي الماضي والحاضر فحسب؛ وإنّما هو استيعاب رمزيّ للكون يشمل مختلف العناصر الثقافيّة التي تساعد الإنسان على كشف أسرار محيطه وعالمه. إنّه أنسنة الإنسان عبر اللغة التي بها تُفهم الأشياء ومن خلالها، والفهم هو بالضرورة تأويل من زاوية رؤية معيّنة

(1) غادامير، هانز غيورغ: الحقيقة والمنهج، الخطوط الأساسية لتأويليّة فلسفيّة، ترجمة: حسن ناظم؛ علي حاكم صالح، طرابلس، دار أويا، 2007م، ص27.
(2) م. ن، ص27.
(3) غادامير، فلسفة التأويل، م. س، ص58.

للأشياء حسب تمّثل معيّن لها، وبما أنّ الدازاين دائم التساؤل حول جميع قضايا الكينونة؛ فالفهم حينئذٍ يجب أن لا يُنظر إليه لحظةً عابرة مؤقّتة؛ بل على أنّه سيرورة زمنية يتسرّب عبرها الإنسان إلى ذاته ويعرفها. وبالتالي، يرتوي بالإنسانيّة الصميمة المميّزة له كنهًا حصريًّا.

لقد جاء غادامير في سياق مراجعته للفلسفة منذ أفلاطون وأرسطو، وصولًا إلى هيغل وكانط ونيتشه وماركس، لكي يؤكّد أنّ الفهم ليس مجرّد معرفة أو فكرة حول علاقة ذات بأخرى، أو علاقة مؤوّل بنصّ، أو علاقة حاضر بماضي؛ وإنّما هو جوهر الكينونة (كما يقول هيدغر)؛ فأنْ تفهم يعني أنّك كائن وموجود هنا، في الراهن وفي العالم.

إنّ الفهم عند غادامير هو الذي يؤكّد على أنّ الوجود الإنسانيّ ليس عفويًّا على غرار وجود الأشجار والأحجار، ولن يكون كذلك ما دام ذلك الإنسان يفهم، يتحاور، يختلف، يرفض وينتقد، والفهم «في سياق الهرموسيّة (الهرمينوطيقا) يتعلّق بما يطلق عليه غادامير القدرة على «استيطان عالم»، والعيش فيه بانسجام أو بتنافر مع محيط مادّيّ لا يتكلّم إلا من خلال هذا الاستيطان ذاته»[1]. إذًا، فالفهم استدلال على الوجود هنا، وإثبات للكينونة؛ سواء في انسجام مع المحيط، أو في تنافرٍ معه، المهمّ أنّه موقف يثبّتنا في العالم في قلب واضح للكوجيتو الديكارتي من «أنا أشكّ، أنا أفكّر، إذًا أنا موجود»، إلى «أنا أفكر، أنا أفهم، إذًا أنا موجود»؛ فالتفكير والفهم واللغة عناوين بارزة لهرمينوطيقا الجدل عند غادامير. وإذا كان الفهم قدرة على استيطان عالم؛ فهو «بذلك لا يمكن أن ينفصل عن التأويل الذي لا يكتفي بالتقاط معنى جاهز؛ بل يقوم ببناء سياقات هي وحدها الحاضنة للمعنى والقادرة على الكشف عنه. إنّ الفهم -بصيغة أخرى- يغطّي مجموع النشاط الإنسانيّ»[2].

(1) بنكراد، سعيد: سيرورات التأويل، من الهرموسيّة إلى السميائيّات، الرباط، دار الأمان؛ الجزائر، منشورات الاختلاف؛ بيروت، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، 2012م، ص131.

(2) م. ن، ص131.

وبما أنّ الفهم يغطّي مجموع النشاط الإنسانيّ، فلا جرَم في تحديد جملة من الأطروحات والمقولات التي تتحكّم فيه؛ بوصفه سيرورة زمنيّة من زاوية واقعيّة بعيدة عن المعياريّة والمنهاجويّة المفروضة، ومن أبرز تلك المقولات مقولة الحكم المسبق والتراث، فأيّ علاقة يمكن أن تربط الفهم بالحكم المسبق والتراث حسب غادامير؟

ثانيًا: الفهم والأحكام المسبقة:

يرى غادامير أنّ «الأحكام المسبقة شروط للفهم»[1]، وتحتلّ تلك المقولة صدارة النقد الراديكاليّ الذي وجّهه صاحب «الحقيقة والمنهج» للأنوار وعصر التنوير الذي لم يتوقّف عن التشكيك في الحكم المسبق والدعوة إلى تجاوزه وتقويضه باسم الحداثة والانتصار للحقيقة! وإلى جانب ذلك، فقد اعتُبِرت الأحكام المسبقة مناقضة للبداهة واليقين حسب ديكارت، ولذلك وجب عزلها، وهنا «يتساءل غادامير بحقّ: أليس هذا الإقصاء الذي تعرّضت له الأحكام المسبقة هو في ذاته نتاج «حكم مسبق» عملت الأنوار على إخفائه؟»[2]. نعم، إنّه تنبيه فلسفيّ عميق يكشف بشكل دقيق عن قصور واضح في تصوّر الأنوار التي دعت إلى اجتناب تقليد طبّقته نفسها بإدراك أو بغير إدراك، فقد كان رهان فلسفة التنوير بشقّيها العلميّ والتاريخيّ هو إبعاد الأحكام المسبقة ووضعها بين قوسين بلغة فينومينولوجيّة؛ بوصفها شائبًا من شوائب الموضوعيّة ومعكّرًا للإدراك البديهيّ للأشياء، واعتُبِر التراث مصدر الأحكام المسبقة. «لهذا السبب اعتبر كانط أنّ الأحكام لا تنفكّ عن نمط في السلطة ينبغي التنديد به؛ لأنّه ضدّ الاستعمال الحرّ والمسؤول للعقل. غير أنّ هذه الفكرة تنمّ عن وهم

(1) غادامير، الحقيقة والمنهج، م. س، ص382.

(2) الزين، محمد شوقي: الإزاحة والاحتمال، صفائح نقديّة في الفلسفة الغربيّة، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون؛ الجزائر، منشورات الاختلاف، 2008م، ص73.

حسب غادامير»[1]، لماذا وهم؟ لأنّ «ما يبدو حكمًا مسبقًا محدّدًا من وجهة نظر البناء العقليّ الذاتيّ المطلق ينتمي في الحقيقة إلى الواقع التاريخيّ نفسه»[2]؛ ما معناه أنّ كانط أو غيره من أعلام الأنوار؛ حينما يستبعدون الحكم المسبق من دائرة الفهم يتناسون أو لا ينتبهون إلى أنّ ما ينعتونه بالسلطة الخارجيّة عن العقل ليس في جوهره مقولة خارجيّة؛ وإنّما هو من صميم الواقع التاريخيّ للعقل نفسه، لذلك «لو أردنا أن نفي تناهي الوجود الإنسانيّ وتاريخيّته حقّهما، فمن الضروريّ إعادة الاعتبار الأساسيّ للحكم المسبق، والإقرار بوجود أحكام مسبقة مشروعة»[3].

إنّ تأويليّة غادامير تقوّض التصاق الحقيقة والفهم بالمنهج؛ سواء أكان تاريخيًّا أو علمويًّا، وبالمقابل تنادي بإعادة الاعتبار إلى الحكم المسبق؛ بوصفه بديلًا إنسانيًّا ينتمي إلى الإنسان نفسه، ولكنّ غادامير حينما يقول بضرورة الإقرار بوجود أحكام مسبقة مشروعة؛ فإنّه -أوتوماتيكيًّا- يسلّم بوجود أحكام أخرى غير مشروعة، فكيف تُعرَف الأولى من الثانية؟

يميّز غادامير بين نوعين من الأحكام المُسبقة؛ هما:

-الحكم المسبق بوصفه حكمًا سابقًا لأوانه (Prématuré): وهذا الصنف يعرقل الوصول إلى الحقيقة أكثر ممّا يفيدها، ويجعل من الفهم محدّدًا قبليًّا في شكل معيّن؛ قبل المواجهة مع الموضوع؛ ويمكن أن تكون الحقيقة هي(x)، ولكنّ هذا النوع لا يقبلها؛ لأنّه مصمّم على أنّها (y)، وهو بالتالي مرفوض.

-الحكم المسبق بوصفه فهمًا أوّليًّا (Précompréhension): وهذا النوع من الأحكام يفصح عن نفسه؛ بوصفه توجّهًا فكريًّا أوّليًّا دون أن يفرض نمطًا وثوقيًّا (Dogmatique) للحقيقة، أو فهمًا متطرّفًا. هذا النوع

(1) م. ن، ص73.
(2) غادامير، الحقيقة والمنهج، م. س، ص382.
(3) م. ن، ص382-383.

من الأحكام هو الذي ينادي به غادامير، ويحثّ على إعادة الاعتبار له، إنّه يرى أنّ الخلل ليس في الحكم المسبق؛ وإنّما في موظِّفه -السيّئ- الذي لا ينظر إليه إمكانًا تقديريًّا للفهم. والحقّ أنّ الحكم المسبق عند غادامير «مجرّد رأي أوّليّ أو تخمين حول مسألة لم يتمّ البتّ فيها، فهو على غرار الأحكام القضائيّة التي لا يتمّ الجزم فيها إلا بعد الإقرار الفعليّ للوقائع»[1]. إذًا، فالحكم المسبق هو أداتنا للفهم، ويستعمل غادامير الأداة بدل المنهج حتى يتلافى التناقض بين الفهم الذي ينازعه والذي يدعو إليه بشكل واقعيّ لا معياريّ - رومانسيّ.

ثالثًا: جدليّة الفهم وانصهار الآفاق:

يقول غادامير في التراث: «إنّ ما يقرّه التراث والعرف يتمتّع بسلطة مجهولة، ويتميّز وجودنا التاريخيّ المتناهي بحقيقة أنّ السلطة التي يتمتّع بها ما وصلنا عبر التراث يمارس على مواقفنا وسلوكنا نفوذًا قويًّا دائمًا»[2]، فالتراث شيء لا غنى عنه في الفهم، وهو الذي يحدّد مواقفنا وشرعيّة أفعالنا الأخلاقيّة، وتبنّي التراث فعل حرّ وبصير؛ ما دام ذلك التراث ليس ماضيًا؛ وإنّما ملازمًا للدازاين في الحاضر أيضًا.

يتشكّل الفهم من جملة من العلاقات الرابطة بين الكلّ (المجتمع) والجزء (الفرد)، أو بين الذات والتراث في معنى مُعدَّلٍ لما يُسمّى بـ «الدائرة الهرمينوطيقيّة» (فهم الكلّ بمقتضى الجزء، وفهم الجزء بمقتضى الكلّ)، والفهم هاهنا يتحدّد بوصفه «مسافة تاريخيّة أو زمنيّة» بين المؤوّل والتراث، مسافة معقولة لا تتّسم بالقرب المفرط؛ كما لا تتّصف بالبعد المفرط.

وبناءً عليه، فإنّ الأحكام المسبقة والتراث عنصران لا محيد عنهما في عمليّة الفهم (التأويل) القائمة عند غادامير بوصفها شكلًا من أشكال

(1) الزين، الإزاحة والاحتمال، م. س، ص73.
(2) غادامير، الحقيقة والمنهج، م. س، ص387.

الحوار (Dialogue) والجدل (Dialectique)[1] بين المؤوّل وموضوع التأويل (النصّ)، وللحوار هنا دلالة عميقة في إطار الفهم دائمًا، والتي تكمن أساسًا في أنّها تعكس إرادة نقديّة في مجاوزة الطرح الهرمينوطيقيّ الكلاسيكيّ للحقيقة أو تجاوز التطابق بين الذات/الموضوع. فإذا كانت الحقيقة -عادة- تفيد تطابق ما في الأذهان مع ما في الأعيان، أو تطابق الفكر والواقع؛ فإنّ غادامير يرى أنّ العلاقة بين الفكر والواقع أو الوعي (المؤوّل) والشيء (النصّ) هي علاقة مناسَبة، وليست علاقة مطابقة. ماذا يعني هذا للهرمينوطيقا؟ يعني أولًا أنّ الحقيقة والمعنى نسبيّان؛ هذه قاعدة. ثمّ يدلّ على أنّ الهرمينوطيقيّ والنصّ في ظلّ التجربة التأويليّة يتواجهان الندّ للندّ دون تفاوت أو رجحان لكفّة أحدهما على حساب الآخر، ومن ثمّ فإنّ الأوّل لا يمتلك ولا يسيطر على الثاني؛ كما إنّ الثاني لا يفعل ذلك؛ لا استحواذ ولا امتلاك؛ وإنّما حرّيّة وحوار، أو تحاور وتلاقٍ بين آفاق الذات/الموضوع، الوعي/الشيء، المؤوّل/النصّ، التراث/الحداثة، الماضي/الحاضر، وهذا ما سمّيته بـ«انصهار الآفاق»[2]، هذا الانصهار يتحقّق بأكثر من الحوار والفهم؛ يتحقّق بالتحاور والتفاهم عبر أنموذج السؤال/الجواب؛ النصّ يسأل المؤوّل، والأخير يجيب، والعكس صحيح، وهكذا يغدو الفهم عبارة «عن أمشاج من الآفاق المتداخلة، آفاق الوعي والشيء، أو الحداثة والتراث، أو الحاضر والماضي؛ ما دام التأويل يشتغل في (البين - بين) لهذه الوقائع التاريخيّة؛ أي في (البرزخ) النظري الجامع بين الحقائق المتعدّدة»[3]. وتلكم هي النار التي يستوي عليها الفهم في هرمينوطيقا

(1) أرسى غادامير هرمينوطيقيّته في الفنّ، والتاريخ، والفلسفة على أساس جدليّ متأثّرًا بجدليّة هيغل وباكتشافه بأنّ الفهم هو الوعي بشيء معيّن هو الذات، ولكنْ في المقابل انتقد غادامير فريدريك هيغل صاحب «جدليّة العبد والسيّد» وفلسفته المثاليّة؛ لأنّه يسجن الوعي في نوع من التعالي المفرط للذات بحكم الصراع على نزع الاعتراف. بينما الجدل عند غادامير جدلٍ لا يعترف أصلًا بالتفاوت أو قوّة طرف وضعف آخر، الجدل بوصفه توترًا (Tension) إيجابيًّا، ومنشّطًا لتفاعل وتحاور أفقي الحاضر والماضي، بين المؤوّل والنصّ.

(2) غادامير، الحقيقة والمنهج، م. س، ص497.

(3) الزين، الإزاحة والاحتمال، م. س، ص81.

غادامير؛ نار الجدل الخلاق بين نظرة المؤوّل ودلالة النصّ، حيث يلتقيان فيولّدان شرارة الفهم، الذي هو فنّ ونباهة فكريّة وحكمة عمليّة، فالفهم يستلزم شخصيّة ابن طفيل «ابن يقظان»؛ لأنّه حيّ و يقظان، ولأنّ الفهم ليس مسألة منهج علميّ أو أداة موضوعيّة كما تريد له الوضعيّة، وليس انفعالات نفسيّة كما تدّعي الرومانسية؛ إنّه سلسلة تراثيّة-تاريخيّة من الوقائع التي تظهر ضمن سياقات خاصّة، إنّه حسّاسيّة وتشكيل وتطبيق؛ لأنّ «الفهم هو تطبيق دائمًا»[1]، والتطبيق معناه القدرة والنباهة في إنتاج دلالات جديدة في الحاضر؛ بناءً على آثار تنتمي إلى الماضي، ووفقًا لذلك يكون الفهم عبارة عن تطبيق دقيق. والعلوم الإنسانيّة في نظر غادامير يجب أن تتبنّى الفهم بوصفه تطبيقًا وإتقانًا، وليس إملاءً وتلقينًا للمعايير الموضوعيّة العلميّة للفهم.

ولكن ينبغي التساؤل هنا؛ بما أنّ الأسئلة في الفلسفة أهمّ بكثير من الأجوبة -كما يرى ياسبرز-؛ فإذا تبيّن أنّ هرمينوطيقا غادامير جدليّة تنطلق من الأحكام المسبقة والتراث والاعتراف بتجربة الإنسان التاريخيّة، وإذا تأكّد بأنّ الفهم تطبيق وإتقان، فما موقف الهرمينوطيقا عند صاحب «الحقيقة والمنهج»؛ بما هي فنّ الفهم وشروطه الممكنة من مسألة اللغة؟

رابعًا: الفهم واللغة:

إنّ موقع اللغة في هرمينوطيقا الجدل عند غادامير يكاد يكون نفسه ضمن هرمينوطيقا الوجود عند هيدغر، فكما يوجد الإنسان من خلال فهمه الراهن للتاريخ والفنّ، كذلك لا يمكن تجاهل أنّه يعيش في اللغة ويتنفّس بها وفيها. فـ»غادامير يرفض -مثل هيدغر- الوظيفة الدلاليّة للغة، ويؤكّد على العكس؛ أي على أنّ اللغة لا تشير إلى الأشياء؛ بل الأشياء تفصح عن نفسها من خلال اللغة»[2]. فاللغة وسيط مركزيّ عند غادامير بين الإنسان

(1) غادامير، الحقيقة والمنهج، م. س، ص420.

(2) أبو زيد، نصر حامد: إشكاليّات القراءة وآليّات التأويل، ط7، الدار البيضاء؛ بيروت المركز الثقافي

والوجود. وهذا الأخير لا يمكن أن ينكشف -عند هيدغر- إلا لغةً، والإنسان كلمة/لغة، فـ «في البدء كانت الكلمة». وعبر أنموذج المحادثة يبرهن غادامير على أنّ اللغة لها حقيقة خاصّة بها ومستقلّة تجعلها أكثر من مجرّد أداة للتعبير، في المحادثة بين طرفين عبر كلمة من هنا وكلمة من هناك، يجد الطرفان نفسهما متورّطين ومقتادين للمحادثة والتحاور، و»يبيّن هذا كلّه أنّ للمحادَثة روحها الخاصّة، وأنّ اللغة التي تُجرى بها المحادثة تحمل حقيقتها الخاصّة ضمنها؛ أي إنّها تتيح لشيءٍ ما أن يتجلّى ويكون موجودًا منذ الآن»[1]. وبهذه الصيغة أصبحت اللغة في هرمينوطيقا غادامير بدورها مبحثًا رئيسًا؛ مضافًا إلى مبحث الوجود، فقد أصبح الهمّ -هنا- هو كينونة اللغة وكينونة الدازاين معًا؛ فالإنسان يعيش في اللغة كما تعيش السمكة في الماء وفق منظور غادامير. أمّا العلاقة الخالصة بين الفهم واللغة، فيُمكن إجمالها في كون اللغة هي ذلك الوسط الشموليّ الذي تتمّ فيه عمليّات الفهم ذاتها، كما إنّ العلاقة بين الفهم واللغة يجب أن يسودها أنموذج تأويليّ سمّاه غادامير أنموذج اللعبة؛ حيث يتحاور الفهم وينخرط في تضاريس اللغة؛ باعتبار الأوّل لاعبًا، والثاني لعبة تمتلك منطقها الداخليّ الخاصّ بها.

خاتمة:

وعليه، فقد تبيَّن أنّ تأويليّة غادامير جدليّة-تحاوريّة بين الذات والموضوع، وبين الحاضر والتراث. هرمينوطيقا انطلقت من هدم المنهج وتأسيس نسبيّة الحقيقة، وقد ارتكزت على الاكتشافات الوجوديّة لهيدغر الأستاذ الذي تجاوز الميتودولوجيا الموروثة إلى الخوض في البنية الوجوديّة للفهم. ويعتبر غادامير أنّ الأحكام المسبقة شروط لا غنى عنها لأجل الفهم؛ باعتبارها رأس مال شرعيّ وعملة قابلة للتصريف؛ استنادًا

العربي، 2007م، ص42.

(1) غادامير، الحقيقة والمنهج، م. س، ص505.

إلى ما يقدّمه النصّ مع التقدّم في تأويله وفهمه، والفهم -كما تمّ التنبيه إلى ذلك- لا يتحدّد بوصفه لحظةً أو صدمةً؛ وإنّما هو سيرورة وصيرورة للتاريخ والمعنى؛ ضمن تحاور بنّاء لا تفاوت فيه بين الماضي الذي ينتمي إليه النصّ والحاضر الذي في ضوئه يُقرَأ، بين النّص نفسه بوصفه موضوعًا، والمؤوّل نفسه بوصفه وعيًا يتبادل الأسئلة والأجوبة مع ذلك النصّ كذلك، ووفق ذلك يبتعد الفهم عن أيّ نزوع معياريّ، ويتبدّى تطبيقًا عمليًّا أساسه المهارة والفطنة والحساسيّة وفنّ التشكيل؛ التشكيل داخل اللغة؛ لأنّ الإنسان بدوره يحيا بين تضاريس تلك اللغة التي تنكشف عبرها ومن خلالها الأشياء لأوّل مرّة.

هذه هي التأويليّة عند غادامير، والتي بنى كثيرون فلسفتهم عليها، كما انتقدها فريق آخر ظنًّا منه أنّ المعرفة والمنفعة متعالقان، وأنّ اللغة لم تكن يومًا بريئة؛ وإنّما كانت معبّرة عن أيديولوجيا السلطة والعلم والتقنية... كما يقول يورغن هابرماس الذي خاض معركة حقيقيّة[1] مع غادامير، قوامها الاختلاف.

(1) لمزيد من التفصيل، انظر: مصطفى، عادل: فهم الفهم، مدخل إلى الهيرمينوطيقا، نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادامير، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، 2007م.